وداع الربيع

ومنذا الذي يفكر فيك ، أيها الربيع الجميل ، آتياً كنت ام ذاهباً ام مقياً ؟ منذا منا يجرّد نفسه من نفسه ليتفرغ ولو دقائق كل يوم ، لمراقبة تغير المشاهد وتعاقب الفصول ، وتنوّع ما تبديه الطبيعة من اشكال وألوان واكفهرار واشراق ؟

نحن ، مثلك ، بعض اجزاء الحياة وبعض مظاهرها وقديلفت منا الانفصال والاعتكاف على نفوسنا مبلغاً نسهى معه عن كل ما عدانا

وهل انت الذي تقاسمنا نصيبنا من الوجود حتى لتصبح مسرحاً لحركاتنا الانسانية والفردية والقومية — ، هل انت مع ذلك تأبه لوجودنا ، وتشعر بشعورنا ، وتشاركنا في مختلف ما نختبره من اضطراب وحيرة ، ونجاح وفشل ؟ أولست مثلنا ما كفاً على ذاتك ، مستغرقاً في حيويتك ، منشغلاً بانماء بذورك والتفاف نواميك ، ترصد الأهبة لاستكمال صورة النضج في حبوبك وابنتك وأزهارك وأثمارك ؟

أولست تجمل كل واحد منا — شأننا فيك — مسرحاً لأعمال النموّ والنضج والازدهار ، وتجري في عروقنا نفس المادة التي تطلقها في شرايين الارض ، وألياف الغصون ، ونسيج الاغراس ، وكؤوس البراعم ؟

بيد انك منفصل بدورة الفلك وسير الشمس حول الارض تبدأ حيث تريد او لا تريد ، وتنتهي حيث لا نفوذ لك في الاختيار . ونحن مثلك من الناحية الواحدة مسيرون ، ولكن ما نحن مخيرون فيه ان هو اسعدنا مرة فكم من مرة كنا فيه معذبين ، وكم من مرة جعلنا التخير أشد شعوراً بأن ما نحن مخيرون فيه انما هو نوع العبودية التي نرضى بها ليس غير !

***

هو ذا الصباح ، آخر صباح من اصباحك . والشمس التي ما زالت محجوبة بالضباب

مجاهد في تجلد الظهور فترحل من لدنها بشيراً . فاذا بخط مديد من النور الحي البهيج ترتسم على طول جبل القطم منعرجاً تعرجه هنا ، متكسراً تكسره هناك ، مستقيماً حيث الصخر يستقيم ، منحدراً فصاعداً حيث الهضبة تتحدر ومن بعد تعلو

ومن خلال الضباب المتلبد تستقل الشمس كل فرجة وكل ثلمة وكل شفوف لتبعث برسالتها الى الجهة المقابلة. فاذا الرسالة نور ينعكس على ارجاء الغروب فيضرم في زجاج النوافذ مايشبه النار ، ويذهّب زوايا المساكن فتسطع سطوعاً سحرياً رقيقاً ، ويلوّن الحجارة بألوان كان الظلام يطمس معالمها ، وتصبغ السحب المتناثرة هنا وهناك وهنالك بأصباغ قرمزية ووردية وليلكية وفضية ، او هي تعمل على جعل بياضها اتم نصوعاً وسط الزرقة السحيقة الفيحاء — كأنما تلك السحب اجنحة مرئية لطغمة من الملائكة المجنّحين

وهذه الاحياء صامتة هادئة ، لا يقطع سكونها سوى خطوات نفر البوليس الموكل بحراستها . وعلى المنازل تخيم سكينة الرقاد كأنما الجماد كذلك مجوع في الليل وفي النهار يقظة . واني لاستشفّ من وراء الجدران عديد النائمين الغافلين عما تنشره الطبيعة في الخارج وتطويه ، المستريحين ساعات قلائل من المشاغل والتبعات والمتع والحرمانات . انهم سيستيقظون عما قليل فتقول القيود للسجين : ها انا ذي ! وتقول المسؤوليات والواجبات والمسرات والآلام للطليق : ها أنا ذي ! ها أنا ذي !

... وقليلاً قليلاً تتصاعد من ابعاد المدينة اصوات تتجمع في صوت واحد منسجم رغم ما يقطعه من تنافر : من كل ناحية يتعالى تغريد الاطيار ، وهل لتغريد الاطيار كالصباح صفواً ؟ وهل يتسنى سماعها في جلاء الا عند ما تكون حركات المدينة ساكنة ويكون اهل المدينة هاجعين ؟

وقليلاً قليلاً تقبل الاصوات من كل صوب ، مقتحمة جميع الشوارع وجميع الانحاء حتى لينقلب الجو مجلى شدو وترجيع وتطريب . . .

واستيقظت الاطيار المسكرة على الشجرة المقابلة لشرفتي وعلا تغريدها فتفوّق على كل تغريد

هذه شجرة قديمة مسنّة كبيرة الجذور ، راسخة الاصول ، كثيفة الاوراق متشابكة

الاغان ، وقد تولدت اكثر النصون الفنية في اعالها . هي الشجرة الواحدة الباذخة في حديقة لم تحفل بغير العشب واغراس الازهار، وسائر اشجار الطريق حيال هذه الشجرة اقزام

***

ترى ما معنى تغريد جوقة الاطيار على هذه النصون ؟ أتسبيحة اليقظة هو ، أم ترنيمة الربيع ، ام اهزوجة الحياة ؟ أم هو مساجلة ومناقشة تتبادل فيها الاطيار آراءها الصغيرة وافكارها المجهولة لدينا ؟ واذا كان هذا التغريد ترتيلاً فما هي لغة التخاطب بينها ، وكل ما عندها من وسائل البيان صدح وشدو وانشاد ؟

لتغريدها مجتمعة وقت غير طويل على أنهُ يرتفع في الساعة نفسها من كل صباح . فما ان ينقشع ستار الضباب ويمضي قرص الشمس في تسلق اول مراتب الفضاء حتى تعمد العصافير الى السكوت . وينفضُّ اجتماعها في نظام هو الذُّ من التغريد واطرب لانهُ ينم على ذكاء ويحدث عن تضامن وتفاهم

فرداً فرداً تنتقل الاطيار الرشيقة الى اعالي الشجرة مختيرة لوقوفها الفنيُّ من النصون حتى يتجمع هناك العدد الوافي ومن يدري هل اولئك اعضاء فصيلة او قبيلة او طائفة او جماعة ؟ وبعد سكون لحظات يخرج عصفور اولاً ، وتخرج بعدهُ عصافير كثيرة تنتظم سرباً يتأثر اثر العصفور السابق ويتجه اتجاههُ فتلوح في الافق تلك الظاهرة الطبيعية البسيطة الفاتنة : سرب الاطيار يجتاز السماء ! لا اظن ان هناك مشهداً اقدر من هذا على اثارة الشوق الى المجهول في الانسان ، واهتياج حنينه الى بلاد نائية وانحاء غير معروفة ، واذكاء رغبتهِ في مغادرة مكان أقام فيهِ ليَزع الى المغامرة وركوب الاخطار واقتحام الاهوال وتمزيق الحجاب الذي ضربتهُ احكام المسافة وانظمة الطبيعة من دونه

لا شك ان للاطيار فضلاً كبيراً في انشاء فن الطيران وترقيته . ليس من الوجهة الميكانيكية فحسب ، ولكن خصوصاً من حيث تنبيه حاسة المجهول في الانسان وشحذ همته في هجرة الديار، وارتياد شاسع الامصار، وتعرُّف ما لا يعرف من امور وممكنات وافكار

***

وهكذا ما ان تغادر الفرقة الاولى مكانها من الشجرة حتى تحتلَّ ذلك المكان فرقة اخرى تصعد من الطبقات الدنيا الى قمة الشجرة ريثما يتكامل عدد الجماعة فتطير بدورها

سرباً وتحلّق وراء طائر يتقدمها. وهكذا يخرج من بين الغصون سرب تلو سرب يختلف كل منها عدداً واتجاهاً ولكنها في الغالب تولي وجهها شطر الشرق ولا تنقلب ابداً نحو الغرب

ألأن الشرق اغنى ارضاً واخصب تربةً وافسح خيراً ؟ وهل شعوب الغرب تحذو حذو الاطيار في اتجاهها نحو الشرق بغية الغزو والاستعمار ؟

والى اين ترى تمضي تلك الاسراب ؟ ألبحث عن قوت وذخيرة ؟ أم لتجلب شأن المستعمرين للعامل والمصانع المواد الخام مؤونة ؟ وهل هي تعود في المساء الى نفس المكان الذي جمعها في الصباح ، وهل هي نفسها التي تطير من ذلك المكان كل يوم ؟ وما الذي يحدو بها الى اختيار ذلك المكان دون غيره ؟ وكيف تنظم الطيرَ جماعاتها وأسرابها وتقيم عليها زعيماً يسير امامها ساعة تنطلق الى اجتياز الفضاء ؟ وان تم لها كل اولئك بالسليقة فيا لها من سليقة عجيبة لا تتجح نحن البشر في تنظيم مثل تآخيها الا بكد وعناء ولا نفتأ نؤدي من ذلك النظام دفعة بعد دفعة من دماء القلوب !

***

اشرفت الشمس وعلت فوق ذرى الجبل الواحد الذي يخفر ناصية ابي الهول ومضت الاطيار الى عمل النهار وليس أعلى الغصون من طير يصدح . واستيقظ اهل المدينة وبدأت حركة الشوارع واستوثقت جلبة العمران . وفاض النور على جوانب الافق وساد طليقاً في كل مكان . وعما قليل تشتد حرارته فتصلينا بسعير الظهائر والهواجر

أكذلك وداعك ، أيهذا الربيع ، في آخر صباح من اصباحك ؟ وهل انت تقبل كما يقبل الواحد منا وتُدبر كما يدبر وتسلم وتودع مثلنا سواء بسواء ؟ ام انت تتولد من قلب الشتاء كما يتولد الفرح من قلب الترح ، وتذوب عناصرك في مطلع الصيف فتمده بالقوة والحيوية كما يُغني الامل مصادر النضج في الانسان ويلهمه كيفية التحقيق ؟

ألا ان هذه حياة متعابكة الحلقات ، متسلسلة الوقائع ، متضافرة الفوارق ، متلازمة الاضداد نحسب اننا نحذقها ونفسرها ونتصرف فيها على حين هي تعالجنا وتتصرف فينا من غير ما شرح ولا تفسير !

« محمد »